الفصل الثاني عشر
الفصحى وتحديات الإعلام

الفصل الثاني عشر
الفصحى وتحديات الإعلام

الإعلام بوسائله المختلفة المقروءة والمسموعة والمرئية يضطلع بمسؤولية أدبية تجاه الأمة وتراثها وقضاياها، فهو المعبر عن آمالها وآلامها، وهو الناقل لخبراتها، وعن طريقه تستقبل الثقافات الوافدة، والخبرات الطارئة، ورسالة الإعلام في المجتمع المعاصر لا ينكرها ويتعامى عن رؤية دورها الإيجابي إلا من ينكر ضوء ذكاء في وضح النهار، لكن الدور السلبي الذي تمارسه وسائل الإعلام لا يدركه إلا نخبة الغُير على اللغة الفصحى، مثلهم مثل أولئك الذين ينكرون على بعض وسائل الإعلام ما تمارسه من خروج على مألوف الأمة الديني والأخلاقي والاجتماعي.

لقد بدأ الإعلام تحديه للعربية منذ وقت مبكر من حياته، وفي القرن الماضي شهدت الفصحى مواقف لا تنبئ عن حمله رسالة هذه الأمة، بقدر ما هي دليل على تحديه لمقدراتها، بفعل ما أوحى به دعاة التغريب من أعداء العرب والعربية وتراث هذه الأمة الديني والثقافي والحضاري بصفة عامة، فعن طريق وسائل الإعلام المتاحة يومئذ، حاول المستعمرون استخدام بعض الأصوات العربية في الدعوة إلى العامية بدلاً من الفصحى، في الكتابة بحجة صعوبة هذه، ويسر الأخرى؛ لأنها هي المستخدمة في الحياة اليومية العامة، المفهومة لدى الشارع، وحصار الفصحى في الكتب دون نشرها وممارستها، ظناً منهم أن في ذلك الحصار قضاء على الفصحى، وعن طريق ذلك يكون نسيان تراث الأمة وحضارتها وتاريخها يسيراً، وحاول الناعقون بذلك إقناع المثقفين بفضل العامية وسهولة الكتابة بها، أو هجر الحرف العربي والاتجاه إلى الحروف الأجنبية للحاق بركب الدول المتقدمة ـ كما يزعمون ـ إلا أن العصر الحاضر شهد تضافر وسائل الإعلام جميعها، سواء بتخطيط وإعداد أو دون ذلك، نلحظ اغتيال هذه الوسائل لطهر العربية الفصحى، وتلويثها بغثاء العاميات المدعمة بالإنفاق السخي لتسويق هرائها على حساب الأصالة اللغوية التي توحد الأمة، وتجمع الشرق والغرب تحت سقف واحد، لأن اللغة الواحدة هي الموحدة كما يقول أحد أساتذتنا الفضلاء **[انظر كمال بشر: خواطر مؤتلفات في اللغة والثقافة، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 1995م، ص224].**

وإذا كانت حماسة بعض المثقفين الأوائل نحو الاتجاه إلى تغليب العامية على الفصحى نتيجة تضليل وانجراف تجاه سراب لا يستقر، فإن استمراء العاميات اليوم يعكس حال الثقافة العربية في عصر التقدم العلمي والانفجار المعرفي، بحيث لم تعد العامية مستغربة إن في الصحافة وإن في التلفاز أو المذياع أو في المنتديات المتنوعة المسيطرة على الشبكة العنكبوتية، ولربما صرنا إلى العكس، بحيث تُستغرب الفصحى في مكان لا يليق به غيرها، ولكنها غربة معرفية، وكأن لسان حالها يقول:

أنا في أمَّة تداركها الله غريب كصالح في ثمود

ومع النقلة العلمية التي تعيشها البلاد العربية، واتساع الاتصال بالغرب عن طريق البعثات العلمية، والتلاقح الفكري الثقافي بين الشعوب سواء بالاتصال المباشر بين أفرادها، أو غير المباشر عن طريق وسائل الإعلام المختلفة، مع هذا أضيف إلى الرصيد الذي أحرزته وسائل الإعلام في سبيل التأثير على العربية الفصحى، رافد جديد يتمثل في إدخال الرطانة اللغوية الغربية في ثنايا الخطاب دونما حاجة إلى ذلك، اللهم إلا التباهي بحذق لغة أجنبية، والشعور بالزهو الطاووسي الذي يمجه السمع والذوق الأدبي، وهذا التطعيم اللغوي المرفوض لدى أصحاب الغيرة على هوية اللغة وأصحابها، إنما هو نذير ضعف الشخصية، وشعور المتحدث بنقص يحاول تعويضه بتقمص جلباب أجنبي لا يستر، وحسب صاحبه ذلة استعاضته الذي هو أدنى بالذي هو خير.